وصف المطر عند امرئ القيس

إعداد

دعاء محمد مهاجر حسين

الإيميل

E.Mail:doaamohager45@aswu.edu.eg

ملخص باللغة العربية

كانت الطبيعة توأم روح" امرئ القيس "حتى اصبحت جزءا من ذاته تأملها ملياً فأدرك خفاياها وفتحت له قلبها فعرف أسرارها ،وحلت من قلبه مكاناً وسعيا فتغنى بها.

لقد رأى السحاب فتحدث عن الرعد والبرق والمطر، وجلس يتأملها من المعارف الجغرافية التى يتضمنها الوصف وكان مسقطها منازل قومه في بنى أسد، فالبرق يلمع وسط سحب متراكمة مستديرة كلمع اليدين أو كمصباح راهب أمال الزيت على فتيله، أما عن المطر فقد اقتلع سيله الأشجار الضخمة العالية ، وأصبح جبل"ثبير" حين غطاه الماء الكثير كشيخ متدثر متزمل في غطاء مخطط، كما اغرق السباع واحتملها مقلوبة كأنها جذور بصل برى، وإتجه الى صحراء " الغُبيط" فأحال هذا الوادى الى روضة تغرد فيها الطيور كأنها سكارى.

أما عن ليل "إمرؤ القيس " فقد استخدم الشاعر لهجة مهذبة في تعامله– بحرص شديد– مع الليل. فها هو يناجيه ويخاطبه بلغة التمنى والرجاء،إذ يعكس من خلال واقع الليل ألام المغترب النفسية، فيصور ليله بأبعاده المترامية كالبحر بأمواجه العاتية ويظهر الشاعر نفسه من موقع المفعولية الهزيلة المنسحبة، وكأنما اختفت الذات الفاعلة، ويظل الشاعر يتنقل من مشهد السيل والمطر ويداعب مخيلته مشهد الليل فيعود أدراجه مرة اخرى.

أما عن ليل "الأعشى " فهو يصيبه بنفس الغنى، فنراه أيضاً يعرج على البرق، فيتوقف عند تصويره إياه استكمالاً للوحة الليل. وليل "عنترة " فهو أسود يشبه لون عبوديته ،فهذا السواد ربطه الشاعر برحيل محبوبته ، وكان الليل شاهداً على ذلك .

أما عن معلقة "طرفة " فقد تحول الليل من شخص يصارع . وقد تحول إلى طرف إيجابى ويقاوم بشراسة المعتد بنفسه وقوته، وظل مترنحاً بين ظلام الليل. وأخيراً تأتى صورة النهار بشكل عام على أنّه البعد الأخر المناقض لليل والذى يتمنى الشاعر الوصول إليه.

Summary

Nature was the twin of the spirit of " Imru al-Qais" until it became a part of himself. He contemplated it carefully. He realized its secrets and opened his heart to him.

He saw the clouds and talked about thunder, lightning and rain, and he sat contemplating them from the geographical knowledge included in the description, and their birthplace was the homes of his people in Bani Asad. The lightning shines in the midst of accumulating round clouds, like the hands of a monk or like a monk's lamp tilted oil on its wick, as for the rain it uprooted its torrent of huge tall trees. And the mountain "Thabir" became when it was covered with a lot of water like a Clavicle old man in a striped cover, as the lions drowned and endured them upside down as if they were the roots of a wild onion.

And he went to the "Al-Gobeit" desert and referred this valley to a kindergarten in which the birds sing as if they were drunk.

He reached a goal in embodying visuals, for he was able to achieve the skill in matching between the analogy and the likeness, and we find great difficulty in uncovering the relationship of the madness of the storm and the panic that it sparked, and between the image of the mountain, which appeared as a tribe man sitting in striped clothes.

As for the night of "Imru 'al-Qais," the poet used a polite tone in his dealings - with great care - with the night. Here he speaks to him and addresses him in the language of Wish and hope , as if the active self has disappeared, and the poet keeps moving from the scene of the torrent and the rain and caressing his imagination the night scene He turns back on.

As for the night of "Al-AAsha", it strikes him with the same richness. We also see him limping on lightning, and stops when he photographed it to complete the painting of the night. And he contemplated in the manner of a man of measure, and found no match for him except in the scene of the bonfire, , it is very dark and has blinded her from her newborn, but in the shadows of that scene hope dies.

As for Poem of "Torrfa" the night has turned from a person struggling. He turned into a positive party and ferociously resisted the aggressor himself and his strength, and he remained reeling between the darkness of the night. Finally, the image of the day comes in general as being the other dimension opposite to the night that the poet hopes to reach.

وصف المطر عند امرئ القيس:

كانت الطبيعة إلف امرئ القيس وتوأم روحه، متاع بصره، ومجال فكره، هام في محاسنها، وتفيأ ظلالها، صاد وحشها، وألف شعابها، وفيها ومعها أمضى أكثر أيامه وأجملها، حتى أصبحت جزءاً من ذاته، تأملها ملياً فأدرك خفاياها، وفتحت له قلبها فعرف أسرارها، وحلت من قلبه مكاناً وسيعاً، فتغنى بها.

يكون الحديث عن المطر في " المعلقة " واحدة من أفكارها الهامة الجميلة، وقد سار فيه على نحو منطقي بديع، رأى السحاب فتحدث عن البرق والرعد والمطر، وجلس يتأملها ويتابع تحركها إلى أن آتت أكلها روضات من النبات والزهر والألوان.

ومن المعالم الجغرافية التي تضمنها الوصف ندرك أن مسقطها كان منازل قومه في بني أسد، بالقرب من تيماء في شمال الحجاز، فالبرق يلمع وسط سحب متراكمة مستديرة كلمع اليدين تتحركان في سرعة، أو كمصباح راهب أمال الزيت على فتيله، غذاها فتوهج ضوؤها، ثم قعد هو وصحبه يتأمل ذلك البرق، وينظر من أين يجيء بالمطر، ويا بعد ما رأى! رأى مطراً غزيراً شمل جهات مترامية، فكانت يمينه على جبل قطن، ويساره على جبلي الستار ويذبل.

لقد غطى ما حول " كتيفة " واقتلع سيله الأشجار الضخمة العالية في طريقه، وقلبها رأساً على عقب، فجعل عاليها سافلها ومر على جبل "القنان" برشاشة، فأكره الوعل المستقرّ به على النزول ولم يترك بتيماء جذع نخلة قائماً، أسقطها جميعاً، ولم يبق من أبنيتها إلا ما كان قوياً مشيداً بالجنادل والصخور العظيمة.

وأصبح جبل "ثبير" حين غطاه الماء الكثير، والغناء الأسود إلا رأسه، كشيخ متدثر متزمل في غطاء مخطط وكشف ما على رأس "المجيمر" من التراب والنبات، ودار السيل حوله بما احتمل من بقاياها فكان كرأس فلكة المغزل.

واستحال في أودية أخرى إلى سيل جارف، فأغرق السباع، واحتملها طافية على وجه الماء، مقلوبة على ظهورها، بادية خراطيم رؤوسها وأطرافها، ترى من بعيد كأنها جذور بصل بري ثم ألقى هذا المطر أثقاله بصحراء "الغبيط" فأنبتت نباتاً حسناً ، مختلف الزهر واللون، فكان نزوله بها كنزول التاجر اليماني إذا جاء

محملاً بعياب فيها رؤوسها ثياب ملونة، ينشرها أمام الناس، ترغيباً لهم في شرائها.

لقد أحال المطر هذا الوادي إلى روضة من النبات والزهر، تغرد فيه الطيور طربة مبتهجة كأنها سكارى، بدأت صباحها بشرب رحيق سلاف مفلفل: [١]

أصاح ترى برقاً أريك وميضة   كلمع اليدين في حبّي مكلل [٢]
يضئ سناه، أو مصابيح راهب   أهان السليط بالذبال المفتل [٣]
قعدتُّ له وصحبتي بين ضارج   وبين العذيب بعدما متأمل
علا قطنا بالشيم أيمن صوبه   وأيسره على الستار فيذبل [٤]
فأضحى يسحُّ الماء حول كتيفة   يكب على الأذقان دوح الكنهبل [٥]
ومر على القنان من نفيانه   فأنزل منه العصم من كل منزل [٦]
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة   ولا أطماً إلا مشيداً بجندل [٧]
كأن ثبيرا ًفي عرانين وبله   كبيرا أناس في بجاد مزمل [٨]
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة   من السيل والغثاء فلكة مغزل [٩]

---

[١] د/الطاهر أحمد المكي : امرؤ القيس حياته وشعره ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، ص٢٣١،٢٣٠.

٢ الوميض : لمع البرق ، الحبي : المرتفع ، المكلل: الذي بعضه على بعض.

[٣] أهان :أكشفه ، السليط: الزيت ، الذبال : الفتائل.

[٤] قطن : جبل في بلاد بني أسد ، الستار ويذبل :جبلان مما يلي البحرين .

[٥] يسح : يصب ، كتيفة : اسم موضع ، يكب : يقلب ، دوح : جمع دوحة ، الكثيرة الورق ، والأغصان ، الكنهبل :ما عظم من الشجر .

[٦] القنان : جبل لبني أسد ، النفيان : ما فاض من مجتمع السيل ، العصم : يريد الوهول ، جمع وعل ، وهو تيس الجبل ،جنس من المعز الجبلية.

[٧] تيماء : مدينة تقع على نحو ٣٢٠كيلومتراً شمالي يثرب ، على مقربة من الطرف الشمالي الغربي من بادية نجد الأطم : الحصون المبنية بالجنادل ، أي الحجارة الكبيرة الضخمة .

[٨] ثبير : جبل بمكة ، عرانين : أوائل : وبل : جمع وابل ؛ وهوالمطر الشديد ، البجاد : الكساء المخطط ، مزمل : ملتف .

[٩] ذرى : جمع ذروة ؛ وهي أعلى الشئ ، المجيمر : اسم جبل ، الغثاء : ما يحمه السيل من رغوة ومن فتاة الأشياء التي على وجه الأرض.

كأن السباع فيه غرقى عشية   بأرجائه القصوى أنابيش عنصل [١]
وألقى بصحراء الغبيط بعاعه   نزول اليماني ذي العياب المحمل [٢]
كأن مكاكي الجواء غدية   صبحن سلافاً من رحيق مفلفل [٣]

وكما وصف المطر عنيفاً جارفاً ، وسيلاً دافقاً يكتسح في طريقه كل شيء ، ووصفه غريراً هادئاً فاض به الوادي ، في أبيات جاءتنا مستقلة ، فالسحابة مسترخية دانية ، يعم ماؤها الأرض ، وتختفي معها أوتاد الأخبية ، ثم تظهر إذا هدأ المطر وسكن وأقلع عن السكب ، وترى الضب وقد أبرزه الماء من حجره سابحاً ماهراً ، خفيفاً نشيطاً ، يثني براثنه ويبسطها ، كما يثني السابح ذراعه ويمدها ، فلا ينعفر بالتراب لأنه لسرعته لا يمس الأرض إلا خفيفاً ، أو لأن طول الانسكاب ذهب بالعفار، وترى الأرض ذات الشجر غمرها المطر، فلا يبدو منها إلا أعالي أشجارها ؛ فظهرت ؛ وقد علاها الزبد ؛ كرؤوس انفصلت عن أعناقها ؛ وغطتها خمرها .

ثم هدأ الجو شيئاً وسكنت الأمطار ساعة، حتى إذا كان العشى تجمع السحاب من جديد، فاستدرته ريح الصبا، ومراه بردها، فتكاثف وتراكم، ثم قصدته ريح الجنوب فأضافت إليه دفعة أخرى، فإذا هو ينصب انصباباً، حتى ضاقت خيم وجفاف ويسر عن أذية المضطرب، وموجة المصطخب، وسيلة المنحدر، مع اتساع آفاقها، وامتداد أكنافها. [٤]

لقد بلغ غاية في تجسيد المرئيات، وأن كل صورة فيه قد استطاعت أن تحقق المهارة في الملائمة بين المشبه والمشبه به، وأن توقفنا أمام لحظة حية من لحظات الغيث أو أمام لقطة صادقة عن مظهر من مظاهره، ولكنها كلها لقطات قادرة على تحقيق وصف صادق للغيث، حتى إذا حاولنا التعمق إلى ما وراء هذا الوصف من موقف عاطفي عام يريد الشاعر أن يخلعه على الظاهرة الطبيعية التي يصورها.

---

[١] أرجاؤه : نواحيه ، أنابيش : جمع أنبوش ، وهو الغراس المقلوعة ،

[٢] عنصل : بصل بري

[٣] الغبيط : اسم مكان ، بعاع : الأثقال ، العياب : المناع .

[٤] د/ الطاهر أحمد المكي : امرؤ القيس حياته وشعره ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، ص ٢٣٦،٢٣٧.

هذه القطعة الغنية بالتشبيهات مثال من الأمثلة الواضحة على تصوير المرئيات وتجسيدها في مهارة، وهي كذلك مثال حي على دقة التصوير الحسي وبراعته، ولكنها للأسف لا تذهب في جملتها إلى غاية أبعد من مجرد الظفر بهذه المهارة في التصوير الحسي للمنظور.

فقد كان الغيث من الشدة والعنف بحيث استطاع أن يكتسح لتدفقه وقوته كل ما في طريقه، وأن يقتلع أشجار الكنهبل اقتلاعاً، ويلقيها على أذقانها فتخر صريعة، ولقد تطاير وتناثر رشاش هذا الغيث فوق الجبال فأفزع الأوعال حتى انطلقت تجري باحثة عن مكان يحميها من المطر. وهذه تيماء لم يترك بها الغيث جذع نخلة ولا بيتاً إلا أتى عليه وحطمه. وإذا نظرت إلى آثار هذا الغيث فستجد "ثبيراً" بعد أن سالت عليه مياه الأمطار قد غدا في هيئة أشبه بسيد القوم الذي يجلس وقد تلفع بكساء مخطط. وواضح من الصورة أن ما تركه الغيث عند انحداره على الجبل من خطوط طولية أشبه بالثوب المخطط الذي يرتديه شيخ القبيلة حين يجلس إليها. ولقد أحاط السيل بالجبل من كل جانب حتى بدت قمة هذا الجبل بفلكة المغزل. ثم انظر بعد ذلك إلى صفحة الصحراء بعد سقوط المطر كيف لبست ثياباً أخرى جديدة، فازدهرت وربت وعلا فيها النبات من كل لون. [١]

وبدا المكان أشبه ما يكون برقعة من الأرض قد نشر عليها التاجر اليماني بضاعته المشتملة على ألوان مختلفة من الثياب منها الأحمر والأخضر والأصفر. وإذا كان الغيث قد ترك هذا الأثر في الأرض فقد بعث حياة من نوع آخر في الطيور التي أضحت وكأنها قد شربت قدراً كبيراً من أجود الخمور وأعتقها فانطلقت ألسنتها بالصياح والتغريد، وراحت تشدو ثملة من حدة الشراب وقوته، وفي الصورة ذكاء وقدرة على بعث هذا الأثر الحي المثير في جوقة من الطيور العازفة المغردة والمنتشية بعد أن صفا لها الجو وأمنت ثورة العاصفة وجنونها، ولكن للغيث إلى جانب هذه الآثار الجميلة التي تركها آثار أخرى أليمة، فقد غرقت السباع في سيول

---

[١] د/ذكي محمد العشماوي : النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية ، طبعة دار الشروق الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م ، ص٢٨٥،٢٨٧،٢٨٦.

هذا المطر وتلطخت بالطين والكدر فبدت على هذه الحال أشبه بأصول البصل البري حين تنتزعه من الأرض ملطخاً بالطين والماء الكدر.

وسوف تجد صعوبة كبيرة في الكشف عن العلاقة بين جنون العاصفة وما أثاره من فزع وما خلفه من تخريب وتدمير، وبين صورة الجبل الذي ظهر بعد السيل برجل القبيلة أو سيدها الذي يجلس في ثيابه المخططة، أو بين هذه الصورة وصورالجبل وقد أحاطت به المياه من كل جانب فظهرت قمته أشبه بفلكة المغزل. أوبين هذا كله وبين الصورة الأرض وقد لونها الغيث بألوان حية بديعة بما أنبته فيها من نباتات مختلفة الألوان؛ ثم صورة الطير التي سكرت فنشطت فغنت، ثم في النهاية صورة السباع التي أغرقها السيل فهي كأنابيش العنصل.

نعم إنه من الصعب أن نجد في هذه الصورة ما وجدناه في الصور التي شاهدناها عند "لبيد" وهو يصف ناقته المسبوعة أو الأتان الوحشية. كما أنه من الصعب كذلك أن نظفر بالعلاقة الحية التي تربط هذا الجزء الأخير من معلقة "امرئ القيس" وبين الأجزاء الأخرى السابقة عليه. [١]

ويكاد شعراء المعلقات يلتقون حول الزمن كجزء من ذلك الحوار الأزلي الذي طرحه الإنسان منذ القدم، عاكساً من خلاله صورة من صور تخاذله واستسلامه وضعفه، وثمة فرق مؤكد بين صراعات الإنسان مع مجتمعه، وإيثاره الاغتراب عنه أحياناً، وبين سطوة الزمن عليه حين يحكم قبضته، فيعجز الإنسان عن مقاومتها، فلا تكاد تراه إزاءه إلا مستسلماً، معلناً انسحابه بعد الصراع متهافت، مما يتجسد في عدة مواقف تجمعها بؤرة ذلك الاغتراب، من خلال ما يدور حوله من صور جزئية يتعلق جانب منها بمشهد الليل بصفة خاصة.

فإذا ما أطلقنا العنان لشعراء المعلقات إزاء هذا الصراع الدائم، رأيناهم يطرحون الموقف بأبعاده المتنوعة، ابتداء في ذلك من اغتراب الشاعر أمام مشهد الليل كلمح قصير وموجز، ومعلم محدود من شرائح هذا الزمن قبل الخوض في

---

[١] د/محمد زكي العشماوي : النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية ، طبعة دار الشروق الأولى ،١٤١٥ه-١٩٩٤م، ص٢٨٧ ٢٨٨ .

تصويرسر مديته أو تأمل جبروته، وعندئذ تتسع الدائرة، وتتضخم خطوطها وتتعدد مجالاتها، وتتسع حدود تأثيرها.

فمع مشهد الليل قد يتوقف الشاعر – بعامة – سعيداً هانئاً يخشى انقضاءه، بل لعله لا يريد هذا الانقضاء ولا يتمناه بحال، وربما حاول هو نفسه أن يتحكم في ليله الغزلي، فقصره من واقع تجاربه، حتى إذا ما ظهر النهار، وكان الانقضاء الحتمي لليل كان اغترابه أمام النهار ذاته موقفاً آخر، وكان حزنه إزاء مرور ذلك الليل الذي أبى أن يظل في توحده معه، ولكنها دورة الزمان التي حرمته استكمال المتعة المرهونة به فلا يبقى له إزاءه إلا مجرد الاعتراف باغترابه، فهو إحدى صور الكآبة التي طلع بها زمانه. [١]

ولكنا لا نرى هذه الصيغة تشيع كظاهرة عند شعراء المعلقات، على نحو ما نعرفه بعد ذلك عند المجان واللاهين من الشعراء في عالم الغزل، فعلى عكس ليل عمر بن أبي ربيعة الشاعر الأموي المحتضر أو ابن المعتز الشاعر والأمير العباسي المحتضر أيضاً نجد الصورة المفزعة لليل البدوي عند شعراء المعلقات الجاهلية في أكثر الأحيان، مما ينعكس في إحساس الشاعر منهم بالغربة القاتلة إزاء الليل كزمن ثابت – طبقاً لحالته النفسية بالطبع – لا يكاد ينقضي بالإضافة إلى المشهد اللوني الكئيب الذي يوحي به سواده، ويطرحه ظلامه، إذ ربما كان هذا السواد أقرب إلى نفسية المكتئب وقتامة عالم المغترب، حتى ليعيش على أمنية الخاص منه، ولكنه غالباً ما يبدو عاجزاً عن اصطناع وسيلة ناجحة لذلك الخلاص، فلا نراه أمامه إلا متخاذلاً مكتئباً، يقف في تصويره على تناول أزمة الإنسان في زحام ذلك الظلام وصراعه معه، أو ينجرف في خضم الاحزان التي لا يكاد يرى لها نهاية؛ لأنه – هو أيضاً – لا يريد أن ينتهي، وكأنه إنما يتحدى الشاعر، ذلك الانسان الهزيل، في أمنيته بانقضائه .

---

[١] د/ مي يوسف خليف : الموقف النفسي عند شعراء المعلقات (١) الاغتراب ، الغريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، ص.

وهنا تطمس ملامح التكافؤ بين أطراف الصراع المفزع، فإذا بالشاعر يكتفي بتصوير آلام النفس إزاء هذا المشهد على نحو ما اصطنعه امرؤ القيس في قوله المشهور في معلقته:

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في صمامها بأمراس كتان إلى صم جندل
وقربة أقوام جعلت عصامها على كامل مني ذلول مرجل
وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوي كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى إن شأننا طويل العنان أن كنت لما تمول
كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

ولنا أن نتصور طبيعة تلك اللهجة المهذبة التي استخدمها الشاعر في تعامله – بحرص شديد – مع الليل، إذ هو يخشاه وتفزعه مخاوفه، ومن ثم راح يناجيه ويخاطبه على لغة التمني والرجاء، إذ يعكس من خلال واقع الليل آلام المغترب النفسية، ويحكي جانباً من معاناته الإنسانية، ومن خلال حواره معه تراه يرسم جانباً آخر من حلم ذلك المغترب ولكنه الحلم الذي ينصرف به إلى عالم آخر أكثر ضبابية، وأشد غموضاً، فسرعان ما يستدرك على آلام واقعه، خاصة حين يتصور ظهور الصبح الذي لن يأتيه بخير، فقد تشابهت أمامه مصائب الزمن، وأعلن الليل والنهار عداءهما الصريح للشاعر، فلا أمل إذن في الخلاص بأي من صوره أمام هذا النمط العدائي من أنماط العلاقة.

وإذا بالشاعر يعمد إلى التصوير الذي يقرن فيه ليله بأبعاده المترامية بمشهد البحر، وبالتحديد يخص منه أمواجه العاتية حين تأتي على كل ما في طريقها فهو بذلك يعكس كما من الضآلة البشرية أمام انتصار قوى الطبيعة، خاصة منها سيلها الجارف سواء ما ظهر منه في لوحة الليل، أو في موج البحر، وهو ما يزيده تفصيلاً حديث الشاعر عن نفسه دائماً في موقع المفعولية الهزيلة المنسحبة، وكأنما

اختفت هنا الذات الفاعلة، وأفسحت المجال للأقوى ليبسط مزيداً من قوته وعنفه وبطشه، ولم يبق لها إلا مجرد إعلان الاستسلام، وهو استسلام مشوب بالحذر والخوف من ناحية، وبالأمل والرجاء من ناحية أخرى، مما يعكسه ذلك الحوار الذي استأنفه الشاعر حين رآه وقد تمطى بصلبه، تشبيهاً له بالبعير كملمح أساسي من ملامح البيئة، ولكنه البعير العنيف لحظة إناخته وقد تمطى صلبه، وازداد امتداد ما بين صدره ومؤخرته بما لا يبشر بانتهائه مطلقاً.

وعلى بداوة الصورة وبساطتها تبدو رمزاً دالا ً – بصدق – على حدود البعد النفسي لتجربة الشاعر، خاصة حين راح يقدم فروض الولاء ورموز الطاعة والخضوع في أسلوب حواره معه – أي الليل – وقد رآه بهذه الصورة المخيفة؛ ليخاطبه على سبيل التمني راجياً إياه أن يرحل، وليأتي بعده الصباح، ولكن أي إصباح هذا والمصائب ما زالت متراكمة على كل كيانه، تعبث بوجدانه، وتلهو بمصيره، وهل يتصور هذا الصباح – في جوهره – إلا جزء اًخر من الزمن الذي أعلن تحديه له، الأمر الذي دفعه دفعاً إلى فقدان الأمل حتى في إطار ذلك الحلم الذي داعبه، وعاش أسيراً له حيناً.

ولذلك ظل مشهد اليل يداعب مخيلة الشاعر حتى إذا ما تحول إلى مشهد السيل ومشهد المطر، وشغلته من الطبيعة مظاهر قسوتها، ورموز انتصارها على الإنسان، وإمكاناتها في قهره وإذلاله، عاد أدراجه إلى الليل يستوحي المزيد من المعاني والصور من خلال مشهدي النور والظلام – كم كان من النهار والليل – في لحظة الاستعانة بالرفيق، وحديثه إليه حول ذلك البرق – سيظل جزءاً آخر ممثلاً لقسوة ذلك الخصم العنيف، فهو ينذر بسيل جارف لا يذر شيئاً في طريقه إلا وأصابه بلون من الدمار والهلاك:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه	كلمع اليدين في حبي مكلل
يضئ سناه أو مصابيح راهب	أهان السليط بالذبال المفتل؟
قعدت له وصحبتي بين ضارج	وبين العذيب بعدما متأمل!
علا قطناً بالشيم أيمن صوبه	وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يبح الماء حول كتيفة	يكب على الأذقان دوح الكنهبل

فماذا صنع امرؤ القيس إذن مع البرق إلا أن يقف إزاءه متأملاً، ومستعيناً بالرفاق حتى في لحظة التأمل هذه، وإن طالت لديه، إذا لا يسعه إزاء المشهد برمته إلا أن صوره على لغة التشبيه متأملاً أبعاده فحسب، وكأن الموقفين كليهما إنما يعكسان موقفاً واحداً للشاعر بدا مكرراً في كل الأحوال، فهو يخاطب الليل خائفاً فزعاً، أوراجياً متمنياً، فإذا ما خاطب البرق لم يتجاوز منطقة هذا التأمل، بل راح ليتلقى بعد ذلك كل المصائب التي يبعث إليه بعد ذلك الليل، أو ما يقترن به من البرق حين تحول إلى إنذار بتدافع السيل المدمر ليجرف كل شيء في طريقه.

وإذا بليل" امرؤ القيس "إلى "الأعشى" ليصيبه بنفس الضنى وبأشباه ذات المتاعب، وليقف أمامه حائراً فزعاً وخائفاً قلقاً، خاصة حين يتجاوز الأمر حد ظلمة الليل وحلكته إلى ما وراء ذلك من مشاهد صوتية، تجمع فيها الصورة بين الصوتي والمرئي في قوله:

وبلدةً مثل ظهر الترس موحشة	للجن بالليل في حافاتها زجل
لا ينتمي لها بالقيظ يركبها	إلا الذين لهم فيما أتوا مهل
قطعتها بطليح حرة سرح	في مرفقيها إذا استعجلتا فتل

وإذا "بالأعشى" يردف هذه الصورة المفزعة لليل بمثل ما صنعه "امرؤ القيس" حين عرج على البرق، فتوقف عند تصويره إياه، استكمالاً للوحة الليل، وإذا بالبرق عند الأعشى يبدو أيضاً على نفس القياس:

بل هل ترى عارضاً قد بت أرمقه	كأنما البرق في حافاته الشعل
له رادف وجوز مفأم عمل	منطق بسجال الماء متصل

فقد لاح له البرق مكملاً لفزع الليل ومخاوفه في رحلته عبر الصحراء الشاسعة ، وقد راح يتأمله على طريقة "امرئ القيس" من قبل ، ولم يجد له قريناً تصويرياً إلا في مشهد شعل النار التي ينبعث توهجها في عمق الظلام ، ويملأ جوف الصحراء وقد راح – أي البرق – ينذر بالمطر عبر السحب التي أحاطت به من كل جانب ، وإذا بالشاعر يتخفف من مخاوفه بمزيد من التريث والتأمل ، وكأن الموقف تحول من لوحة الزمن إلى مشهد من مشاهد الطبيعة ذاتها ، يدعو إلى مزيد من هذا التأمل

الهادئ الذي استحسنه الشاعر حتى لم يشأ الانصراف عنه من خلال إمكانات لهوه ، ومجالات عبثه المتعددة :

لم يلهني اللهو عنه حين أرقبه ولا اللذاذة من كأس ولا شغل

فقلت للشرب في درنا وقد ثّملوا شيموا وكيف يشيم الشارب الثَّمل

ولكن الشاهد لا يزال وارداً حول هذا التداخل بين قوى الطبيعة، كما أحسها الشاعر في دائرة السطو والقوة والتهديد الدائم بسحقه وهزيمته، فها هو ليل الأعشى وبرق السحاب فيه، كما كان الموقف النفسي وارداً على نفس النسق لدى امرئ القيس، فهناك تبدي رجاء المغترب متفاعلاً مع فزعه ممزوجاً بقلقه، وهنا اصطناع لضرب من هدوئه، وصبره وجلده، في زحام أولئك الرفاق وذلك التأمل.

المصادر والمراجع

- د/الطاهر أحمد المكي : امرؤ القيس حياته وشعره ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، ص٢٣١،٢٣٠.
- الطاهر أحمد المكي : امرؤ القيس حياته وشعره ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، ص ٢٣٧،٢٣٦.
- د/ذكي محمد العشماوي : النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية ، طبعة دار الشروق الأولى ١٤١٥ه-١٩٩٤م ، ص،٢٨٥،٢٨٧،٢٨٦
- د/محمد زكي العشماوي : النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية ، طبعة دار الشروق الأولى ،١٤١٥ه-١٩٩٤م، ص٢٨٧ ٢٨٨ .
- د/ مي يوسف خليف : الموقف النفسي عند شعراء المعلقات (١) الاغتراب ، الغريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، ص.